المصدر: السياسى المصرى
التاريخ : ١٩٩٣/٥/٢

د. محمد إسماعيل على يكتب :

ذكريات وانطباعات شخصية مع الرئيس السادات .. وعنه

محنة السادات

إستند إلى الجدار المائل .. واختار الصديق الخطأ !!

وكان الانفتاح على نفوس البسطاء من الناس ، شيئا أقرب الى الحلم !! لأن شارع الشوارى فى القاهرة ، كان (أوربا) المصريين ، يذهبون اليه ، ليروا / المستورد) من الملابس ، والأجهزة الكهربائية ، التى كانوا يسمعون عنها أو يقرأون . بل كان معيار الوجاهة عند الناس ان فلانا يرتدى قميصا مستوردا !!

اما كارثة (المستورد) الحقيقية ، والتى شاهدتها ، فهى ملابس البنات !! فقد كانت (البلوزات والجوبات) المستورده هى السنارة ، التى يتم بها اصطياد البنات وايقاعهن فى شبكات الدعارة وكان السفر الى (بيروت) حلما من أحلام البنات بحثا عن المستورد !! ثم يكون السقوط مدوياً ومحزناً ..!! ثم ان شبكات المتاجرين بالشنطة ، كانت علامة من علامات الانفلاق ، بالاضافة الى ابتكار وانتشار عمليات التهريب .

وكان من نتيجة ذلك ، نشوء فكرة تهريب النقد حتى فى نعال الأحذية !!
ويقابل كل ذلك ، قصور شديد فى الداخل عن الوفاء بالحاجات الأساسية للناس ، والتدهور الصارخ فيما ينتج فى مصر ، لسبب جوهرى هو انعدام المنافسة ، وشعور القائمين على الإنتاج فى القطاع العام بإنهم يحتكرون السوق ، فلا مفر أمام المستهلك المصرى !!

هكذا كان الانفتاح فى نظر بسطاء الناس ، انفراجا نفسيا شديد التأثير على النفوس .

ومن الغريب ، ان الاشتراكية ، ومافيها من انغلاق ، كانت تسعى وهذا هدف مشروع - الى تذويب الفوارق بين الناس ، لكن هذا الهدف لم يتحقق بل تحقق عكسة تماما لأن القادرين فقط ، هم الذين كانوا فى استطاعتهم ، الحصول على تأشيرة دخول لدولة الشواربى وشراء مايريدون ، أمام عيون جائعة مليئة بالحسرة والالم . ونشأت نتيجة لذلك ، طبقة جديدة ، تستخدم المستورد وتأنف من كل هو مصرى !! وأصبح الذين يستعملون الملابس المصرية أو المأكولات المصرية ، هم الفقراء المطحونين ، لأنه لا يقدر على المستورد الا الأغنياء !!

الآن أصبح (المستورد) متاحاً للجميع .. وفقد شارع الشواربى صولته وجولته ، وتحولت مصر الى شواربى !

والسؤال المطروح ، له شقان :

أولهما : هل اثر استيراد السلع الاستهلاكية على التيل المصرى ؟

ثانيهما : هل اثر استيراد السلع الاستهلاكية على الإنتاج ؟

من الثابت حتى كتابة هذه السطور ، أن (الإنفتاح) الذى اعتبرة الناصريون والاشتراكيون جريمة ساداتيه ، لم يؤثر بالسلب لا على المثيل المصرى ولا على الإنتاج ، بل على العكس تماماً ، ارتفع مستوى المثيل المصرى ارتفاعا مذهلا نافس به المستورد ، وخصوصا فى الملابس والاجهزة الكهربائية .. اما الانتاج ، فإن المدن الصناعية المنتشرة فى العاشر من رمضان و٦ اكتوبر وغيرهما ، تكاد الآن تحول مصر من دولة مستهلكة الى دولة منتجة .

ذلك كله ، بسبب (المنافسة) ورفع القيود على الانسان المصرى ، والاحتكاك بكل ماينتج بالخارج .. ومعنى ذلك أن (خطايا) السادات فى نظر خصومه ، هى مزاياه فى نظر (مصر) دولة وشعبا فى الحاضر والمستقبل !!

□ □ □

كان الانفتاح الاقتصادى ، أذا ، خيط يشدنى الى السادات ، كرجل لم ينغلق على نفسه ولم يسقط اسيرا لايدولوجيات متهالكه كما لم ينزلق الى هاوية الجمود . بل اعتبرته أعظم خليفة لعبد الناصر واعظم من قاد ثورة يوليو بعد وفاة زعيمها ..

ذلك ان ميزة الزعيم الشعبى ، أنه يتجاوب مع منصة الجماهير ويشعر بما يشعر به كل إنسان ، وقد عاش السادات تجربة عبد الناصر ، وشاهد وعايش أخطاءها ، فقرر تصحيحها ..

وأتصور أن عبد الناصر لو كان حيا ، لما اختلف فى تصرفاته عما فعله السادات ، لأن الفشل الذريع كان مصاحبا للكثير من سياسات عبد الناصر مع العالم الغربى بصفه خاصة ، ومع الكثير من الدول العربية ، فضلا عن ذلك القهر المشين ، الذى لاقاه الإنسان المصرى ، على ايدى الجلادين من المحيطين به ، والذين - لا أعلم بحق - إن كان يعرف بذلك أولا يعرف .

ويبدو أن مظاهر الانفتاح ، التى بداها السادات ، امتدت خارج نطاق الاقتصاد ، لتشمل السياسة أيضا ولتشمل كذلك عصر عبد الناصر !!

فقد بدأ السادات عام ١٩٧٦ فى إنشاء الأحزاب على استحياء ، تحت مسميات جديدة ، كان كلمة الأحزاب من الممنوعات المحظور تداولها !! وبدأت فكرة (المنابر) ، بذرة للأحزاب .. وقام منبر اليمين ومنبر اليسار ومنبر الوسط ، إقرارا بحقيقة اعتنقها السادات وهى ان الفكر السياسى ، لايخرج عن ذلك .

مهما كانت محدودية التدفق الحزبى فى ذلك الحين ، فقد كان من المقطوع به

ان ثمة نوافذ سياسية متباينه قد تم فتحها فاصبح للمصريين القدرة على ممارسة الشهيق والزفير سياسيا !!

وأية ذلك ، انه خلال تلك الفترة ، ظهر أقطاب سياسيون لمعارضة سياسات السادات مثل المرحوم فتحى رضوان والمرحوم ممتاز نصار والمرحوم محمود القاضى . وكان نقدهم لإذاعا وعنيفا ، أثار دوائر متباينة الاتساع فى بحيرة سياسية ظلت راكدة فى مصر ، وراقدة تحت أقدام الاتحاد الاشتراكى !!

وإنه لمن دواعى الاسف ، ان تكون الأبواب التى فتحها السادات ، هى ذاتها الأبواب التى أتت منها الريح ، فاقتلعته فى النهاية ، يوم الاحتفال بنصر اكتوبر !!

فقد فتح الأبواب على مصاريعها للتيار الدينى ، لموازنة التيارات الماركسية والناصرية ، ظنا منه انه سوف يكون بمأمن من خصومه السياسيين .

وفتح الأبواب على مصاريعها للتيارات الحزبية المعارضة ، ظنا منه ان فى ذلك تنفيس عن كبت عاش فيه المصريون كثيرا ..

وفى ظنه كان ذلك كله كفيلا بالعرفان له بالجميل .. !! وقد عبرلى عن ذلك بمقوله لا أنساها :

« كلهم بيحبونى مش أنا اللى أخر جت الإخوان من السجون .. وخليت كل واحد البلد يتكلم على كيفه .. حتى على أنا ومراتى !!

ولم يكن ظن السادات صحيحا .. فقد كبر الشبل الدينى والتهم صاحبه يوم ٦ اكتوبر ١٩٨١ ... ومهد ـ الذين تكلموا ـ عقول الناس لقبول هذا الالتهام المثير !!

وهكذا استند السادات الى الجدار المائل ، واختار الصديق الخطأ ...

ومهما كان الثمن الذى دفعه السادات ، من حياته شخصيا ، فقد كان الأب الشرعى للحرية السياسية والاقتصادية فى مصر منذ اكتوبر عام ١٩٧٠ !!

□ □ □

كان السادات يعشق الحرية بنوعيها ، وكان غارقا فى حب مصر .. يفضلها عن العرب اذا تعارضت المصلحتان .. ويفاخر أنه مصرى ، .. اشتغل وبكل ما يشتغل به المصريون .. سائقا وتباعا وصائدا ومناضلا مطاردا

للاستعمار ، وضابطا وسجينا ومطرودا عن الجيش ، وصحفيا وثائرا ورئيسا ... ومقتولا !!

وكنت معه فى الاسماعيلية فى شهر اكتوبر ١٩٧٩ .. يتحدث عن (ارادة الله) حينما تشاء !!

« كنت فى زنزانة مطرود من الجيش وانا ملازم . مجرد من رتبتى .. يعنى حاترمى فى الشارع بعد السجن .. وكان معايا فى السجن جردلين .. واحد للشرب .. وواحد للبول !! تفتكر ايه اقصى امنياتى !! عمرى ماجنح خيالى انى ارجع الجيش !! شوف بقى .. ربنا خلانى رئيس جمهورية !! [ثم يهتف بتأثر شديد] .. ويرزق من يشاء ، بغير حساب !! »

هكذا كان السادات ، عميق الاحساس بالله وبقدرته شديد الإيمان بالله وبمصر .. لكن قدره كان عكس ذلك تماماً .. فقد قتل متهما بالكفر .. وعورض متهما بالدكتاتورية !!

كانت مشكله السادات ، تختلف عن مشكلة عبد الناصر اختلافا شديدا .

ذلك ان عبد الناصر يعرف انه ثائر وزعيم لثورة .. وان ذلك يشفع له ان

يكون معبرا عن الشعب .. فهو مجلس الشعب فى واحد .. وهو مجلس الوزراء واحد .. وهو الشعب المصرى فى واحد !!

لذلك كان قانون الثورة ، هو « إرادة الزعيم » « لأن إرادته ، هى إرادة الشعب » وكانت كل قراراته - فى تصوره - تحقيقا لآمال الشعب ، لانها لصالح الشعب .. لذلك كان يؤمن إيمانا مطلقا بأن الذين يعارضون قراراته هم أعداء الشعب !!

وحينما تولى انور السادات حكم مصر ، اراد ان ينشىء دولة مؤسسات ، واراد بثورة التصحيح - أن يصبح « رجل دولة »

ومن الطبيعى ان يختلف تصرف « الزعيم الثائر » عن تصرف « رجل الدولة » ذلك ان مشيئة الزعيم ، هى القانون الواجب التطبيق .. لكن القانون عند « رجل الدولة » هو مايصدر عن المؤسسات الدستورية .

ذلك كله كان تفكير السادات ، والذى عبر عنه بنهاية « الشرعية الثورية » وحلول « الشرعية الدستورية » !!

لكن السادات ، كان ثائرا قبل ان يكون « رجل دولة » !! لذلك كانت أزمته الحقيقية ، هى اختفاء رجل الثورة وراء رجل الدولة ..!! كانت « الثورية » تحت جلده ، ولم يستطع ان ينسلخ عنها ليصبح رجل دولة مجردا ، مثل غيره من رؤساء أوربا كما كان يردد .

لهذا كان يشعر بأنه « صاحب فضل » !! وان ذلك يمنحه من حب الجماهير تقديرا خاصا . فهو صاحب الفضل فى هدم المعتقلات وإخراج المعتقلين بالآلاف .. وصاحب فضل فى تطهير مصر من الحكم الماركس والقوات السوفيتية ، وصاحب فضل فى التخطيط والإعداد والتدبير لنصر اكتوبر ومحوعار الهزيمة .. وصاحب فضل فى اخراج اسرائيل من سيناء .. وصاحب فضل فى فتح الافواه المكممه لتقول ماتشاء .

وكان يشعر بحزن عميق حينما يشعر أن هناك (نكرانا للجميل) !! وأن هنـاك مـن يصفـونـه بالدكتاتورية ! !وبالخيانة !!

وكان يضرب كفا بكف وهو يقول « سبحان الله !! » الناس دى عايزة تتحط فى السجن عشان تحبنى !؟ همه خدوا على كده ولا إية !؟ .

كان الكلام هنا يدور بينى وبينه عن المرحوم فتحى رضوان وعن الدكتور حلمى مراد !! كان يتكلم بحسرة شديدة ، وبلهجة المصدوم فى شخص كانت له مكانه كبيرة فى قلبه .

□ ولأن السادات كان هكذا مزدوج الشخصية ، ثائرا ورجل دولة معا ، فهو لا ارضى الثوار ولا ارضى طلاب الديمقراطية فقد سخط عليه اولئك وهؤلاء !!

ومن الواضح ان ذلك التناقض . قد اثار حفيظته واثار فيه نوازع الرجل الثائر ... فكان ينقض على اى إنجاز ديمقراطى بحماس الثائر ، الذى راه فى عبد الناصر ، ويعود إلى ذلك الإنجاز بامال رجل الدولة الذى يتمنى ان يكونه دائما ...

□ وكان عيبه الاكبر ، انفعاله الشديد ، ورد فعله السريع ... ولم يكن يترك - للمختص - مهمة الرد . !! فهو مثلا يتصدى للرد فى خطاب عام على خطبة جمعة ورد فيها نقدله !! مع انه كان من الممكن الا يرد بنفسه وان يترك وزير الاوقاف يرد !! وكان بطبيعته الريفية المصرية الشديدة الوضوح ، يجمح فى رد فعله ، فتصدر عنه كلمات هى فعلا كلمات انور السادات ابن البلد المصرى ... لكنها لايجب ان تكون كلمات انور السادات ، رئيس مصر !!

وحينما اقتربت منه ، ايقنت ان مشكلة السادات فى اندفاعه هذا ، هى مشكلة مستشاريه ، الذين يجبنون عن نصحه !! صحيح انه

كان عنيدا .. وصحيح انه كان يتحول فى عنفة الى من يسدى إليه النصيحة .. لكن هناك دائما مدخل هادىء للدخول إلى فكره وتهدئته مارسته معه قليلا ، ولم يمهلنا قدره كثيرا .. !!

والمدهش انه كان شديد الهدوء والمكر والدهاء والصبر مع الاسرائيليين خصوصا ، وسياسته الخارجية عموما ، لكنه كان شديد الاندفاع جموحا فى مواجهة خصومة ...

والمأساة الحقيقية ، هى أن السادات قدم لخصومة الأسلحة لمحاربته !! ولم يستفيدوا من احد إلامنه هو .. حتى ان احد الذين اعتقلهم السادات ، ولم يكن يساوى بعوضة (!!) اخذ يتحدث عن نفسه كبطل من ابطال ٥ سبتمبر ١٩٨١ !!